

## التغنى بالحرية

### في شعر خليل مطران

١

من يقرأ في تاريخ العرب في العصر الجاهلي وأخبارهم ترسم أمامه توأ صورة  
العربي القديم ، وقد آمن بحريته إلى أقصى الحدود ، وحقاً كانت لقبيلته حقوق  
عليه ، ولكن هذه الحقوق لم تكن واسعة ، ولم تكن تتضارب أو تتناقض مع  
حريته الفردية . كان هناك سيد القبيلة ، ولكن سيادته كانت رمزية أكثر منها  
عملية ولم يكن يُبْرَمُ أمراً من سلم أو حرب دون الرجوع إلى شيوخ العشائر  
والبطون ، فلا بد له من استشارتهم ، ولا بد له من أن يستمع إلى أفراد القبيلة  
المختلفين ، فهم جميعاً متساوون في الحقوق .

وظل للعربي شعوره القوي بحريته وكرامته في ظلال الإسلام ، فإن الرسول  
صلى الله عليه وسلم وخلفاءه الراشدين لم يخضدوا من هذا الشعور ولا من  
حدته ، ما دام لا يتعارض مع تعاليم الدين الحنيف ، ولا يتعارض مع  
حرية الآخرين في الجماعة الإسلامية الجديدة .

وفي الوقت نفسه حارب الإسلام الطغيان والظغاة ممن يسلون شؤون الناس ،  
وفي القرآن الكريم: ( يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً  
وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ) . وفيه أيضاً . ( إن فرعون عدلاً في  
الأرض وجعل أهلها شبيهاً يستضعف طائفة منهم ، يذبح أبناءهم ويستحيي  
نساءهم ، إنه كان من المفسدين ، ونريد أن نمنن على الذين استضعفوا في الأرض  
ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين ، ونمكن لهم في الأرض ونرعى فرعون وهامان

وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون) . وفي مواطن كثيرة منه نجد حملة على الظلم والظالمين من مثل قوله جل وعز : ( وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينتقلبون ) كما نجد دعوة إلى العدل والمساواة . وأكد الرسول ذلك في خطبه ووصاياها . حتى قال قوله المشهور : « لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى » فالناس كلهم من عرب وموال لآدم ، وهم سواء في كل الحقوق .

وبهذه الروح الكريمة أخذ الخلفاء الراشدون ، فسوّوا بين العرب والأعاجم في عصر الفتوح ، واشتهر عمر بن الخطاب بعبارات أثرت عنه ، فقد شكاه له بعض الموالى من الولاة عليهم فأنبهم قائلاً قوله المأثور : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً » . وضرب على أيدي ولاته في سبيل تقرير حقوق الموالى في المساواة والحياة الكريمة ، وكان إذا اعتدى عليهم وال اقتص منه بنفسه . وسار سيرته عثمان وعلى بن أبي طالب .

وعلى هذا النحو كان الخلفاء الأولون يشيعون العدل والحرية والمساواة بين الناس ، غير أن الخلافة سرعان ما انقلبت في عهد بنى أمية إلى ما يشبه النظم الملكية المستبدة ، فإذا الطغيان والظلم ينتشران ، وكلما أمعنا في العصور التالية ازداد استعباد الناس بعضهم لبعض ، حتى غلب العرب على أمرهم ، وخرج الحكم من أيديهم إلى الأعاجم ، ولعل ذلك ما جعل المتنبي في القرن الرابع الهجري يصرخ :

وإنما الناس بالملوك وما تصلح 'عرب' ملوكها عجم  
بكل أرضٍ وطئتها أممٌ تُرعى بعبدٍ كأنها عجم

فهو يحمل على الملوك الأعاجم المستبدين ، ويطالب بحكام من العرب كالحكام الأولين الذين ساروا في الناس سيرة عادلة حفظوا لهم فيها حريتهم وحقوقهم الإنسانية ، وصرخ من بعده أبو العلاء صرخته المعروفة :

ملّ المقامُ فكم أعاشر أمةً أمرت بغير صلاحها أمراؤها

ظلموا الرعيّة واستجازوا كيدها فعَدُوا مصالحها وهم أجراءؤها

وزهدت هذه الصرخة وأمثالها ، صريحة في واد ، إذ أخذت تتراكم محن الظلم والطغيان على صدور الناس ، وزادت مع الأيام ، وخاصة في العصر العثماني ، ثقلاً ، فقد عم ظلام الطغيان والاستبداد ، وأهدرت جميع حقوق الإنسان ، ولم تعد مصر والشام وغيرهما من بلاد الدولة العثمانية سوى آلات تستغل لجمع الضرائب ، وما يطوى في هذا الجمع من نظم السخرة والعسف الشديد .

وكان مجيء الحملة الفرنسية إلى مصر بقيادة بوناپرت في أواخر القرن الثامن عشر وما رآه المصريون رأى العين من ضعف آل عمّان سبباً في أن يتنهبوا إلى حريتهم وحقوقهم المسلوبة ، فقد أخذوا يشعرون شعوراً قوياً بكرامتهم وأجبروا الباب العالي أن يولي عليهم والياً يختارونه بأنفسهم ، واختاروا محمد علي ، ولكنه لم يجر معهم إلى آخر الشوط ، فقد كانت عنايته بنفسه وبمطامحه أكثر من عنايته بمصر والمصريين . ولم يأس المصريون ، فقد أخذوا يدفعونه دفعاً إلى أن يجعل مصر تجارى أوروبا في نظمها وفي قوتها ، وانصبت عنايته على الناحية العسكرية واستقدم العلماء الأجانب ، وفتح المدارس ، ولم يلبث المصريون أن أشاروا عليه أن لا يكتفى بعلماء الغرب وأن يكون بجانبهم طائفة من العلماء الفنين المصريين . وبذلك أصبحت الصلة مزدوجة بيننا وبين الغرب ، فكان يحضر علماؤه إلى مصر ويذهب المصريون إليه في البعثات المختلفة للتعلم .

وسرعان ما وقف المصريون على نظم الحكم الغربية ، ورأوا من الضروري أن يشاركوا في الحكم ، ولكن استبداد محمد علي كان لهم بالمرصاد . حينئذ عمد الجليل الأول الذي تعلم في أوروبا إلى وصف الحياة السياسية الأوروبية لعل ذلك يبعث محمد علي بعناً يغيّر من نفسه ويصلح من سياسته وأداة حكمه . ورفاعة الطهطاوى هو أول صوت مصرى ارتفع بتصوير حياة الغرب السياسية في كتابه

« تخليص الإبريز في تلخيص باريز » فقد عرف شئون الفرنسيين حين استقر به المقام في ديارهم إماماً للبعثة المصرية الكبيرة الأولى سنة ١٨٢٦ وقرأ الدستور الفرنسي الذي كان قائماً حينئذ لعهد أسرة البوربون . ونراه يحاول أن يصفه ، مقدماً لذلك بأن فيه أموراً ليست في كتاب الله ولا سنة رسوله ، وكأنه يريد أن يحتاط لنفسه ، ولكنه لا يلبث أن يقول إنها من باب العدل ، وأن فرنسا عمرت به وتحضرت ، إذ العدل أساس العمران . وبأخذ في سرد أهم ما احتواه الدستور الفرنسي مما تصلح به أمور الرعية ، مكثرًا دائماً من التحفظ لأنه كان خاضعاً لنظام محمد على الفردي الاستبدادي، وقد لاحظ في وضوح أن الناس هناك متساوون في جميع الحقوق وأن شريعتهم ضمنت لهم التمتع بالحرية الشخصية في حدود القانون كما لاحظ أن الناس يُعْطون من أموالهم - بغير امتياز - شيئاً معيناً لبيت المال ، كلُّ على حسب ثروته ، وأن كل شخص أهل لأخذ أى منصب كان ، وأن الحاكم لا يجوز على إنسان . وكل ذلك ذكره رفاة كما ذكر مجلسي النواب في فرنسا وأن أعضاءهما موكلون عن الرعية في كل شئون الحكم وقوانينه .

ولا ريب في أن شعور رفاة وأمثاله من أعضاء البعثات إلى الغرب بما ينبغي أن يصير إليه نظام الحكم في مصر من العدل والإنصاف وإشراك الشعب هو الذي ساعد على تطور الحياة السياسية في مصر لعهد إسماعيل ، فأنشئ النظام البرلماني ، ولم يلبث أن خلفه توفيق واستعان بالإنجليز على حكم المصريين فاحتلوا مصر ، وكُتِّمَت الأفواه وعُقِلت الألسنة ، غير أن بذور التحرر والطموح السياسي ظلت تعمل عملها في البيئة الطيبة . وأخذنا نكافح الإنجليز ونجاهدهم جهاداً مريراً، وعاد عبدالله نديم وأضرابه إلى مجالدتهم ، وحمل اللواء مصطفي كامل ، ومن حوله الشعب بكتائبه وشعرائه ينشدون أناشيد الحرية .

وفي هذه الأثناء كان الحكم العثماني المستبد على أشده في تركيا والبلاد التابعة لها : الشام والعراق وغيرها ، وعبئاً حاول مدحت أن يصلح من أمر

السلطان عبد الحميد ، فقد وضع له دستوراً لإصلاح أداة الحكم ولكنه لم يستمع إليه ، بل قضى عليه، كما قضى على كل دعوة فكرية حرة في دولته وولاياتها المختلفة ، واستغرق في سياسته وطغيانه واستبداده ، بينما أخذت الدولة طريقها إلى هاوية التفكك والاضمحلال ، فقدت كثيراً من أقاليمها في البلقان ، واستولت فرنسا على تونس ، وهبت الثورات في كل مكان ، وعبد الحميد وأعدائه يمدونها بالوقود من الاضطهاد للشعوب والاستبداد بالأفراد ومحاولة استعبادهم مع بث الفرقة بين الطوائف والملل وإشعال الأحقاد .

وهبت الصيحات من كل مكان في الدولة العثمانية تطالب بالحرية وإصلاح الحكم ، على لسان فرنسيس فتح الله مراش الحلبي وأديب إسحق وعبد الرحمن الكواكبي ، وكتابه « طبائع الاستبداد » وكذلك كتابه « أم القرى » أشهر من أن تقف عندهما . وكثر الصائحون من أمثال شبلى شميل وولي الدين يكن ، ولكن كأنما كان في آذان عبد الحميد وأعدائه وقراً ، فظلوا لا يسمعون ولا يستجيبون ، حتى أذكوا روح الثورة في الجيش ، فانضم كثير منه وعلى رأسهم أنور ونيازی إلى الثائرين ، وزحفوا زحفاً مفاجئاً على إستانبول في سنة ١٩٠٨ وأكروها السلطان عبد الحميد على إعلان دستور جديد يحفظ للعثمانيين على اختلاف طبقاتهم وولاياتهم وأجناسهم حقوق العدل والمساواة بدون أي تمييز . وتطورت الأمور بعد الحرب العالمية الأولى في هذا القرن فإذا فرنسا تحتل لبنان وسوريا ، وإنجلترا تحتل فلسطين والأردن والعراق . وأصبحت البلاد العربية جميعاً تعاني ظلم المستعمرين وطغيانهم وتكافح ما حشدوا لها من جند وقوة وتثور عليهم ثورات متوالية تبذل فيها الدماء وعزيز الفداء . وتجمعت ثورات كل بلد عربي في صدر أحد أبنائه ، وتفاعلت دماء الشهداء في قلبه ، فإذا هو قائد للمعركة ضد المستعمرين ، وإذا أعلامهم تسقط في كل مكان : في الشام وفي مصر ، ولا يزال الكفاح والجلاد مستمراً في بعض البلدان العربية ، ولكن النهاية المحتومة للمستعمر أصبحت قاب قوسين أو أدنى .

وقد ظل كتّابنا وشعراؤنا طوال القرن الماضي وفي هذا القرن يكافحون المستعمرين  
بسهام مقالاتهم ونخطبهم وأشعارهم يصوبونها إلى نخورهم . وكأنما تحولت البلاد  
العربية إلى ما يشبه بركاناً ثائراً لا يزال يرى المستعمرين بحممه وقذائفه ، حتى  
يولوا الأدبار عن ديارنا إلى غير رجعة ، إلى البحر وما وراءه . وكم من أنشودة  
للحرية أنشدها الشعراء يستثيرون بها همم مواطنيهم ، ويشحذون بها عزائمهم ،  
حتى يذيقوا المستعمرين وبال أمرهم ويردوهم عن أوطانهم خاسرين .

## ٢

وخليل مطران في طليعة شعرائنا الذين طالما تغنوا بالحرية ورتلوا أناشيدها  
ترتيلاً ، وقد ولد في لبنان سنة ١٨٧٢ وجو الطغيان التركي ينتشر في ربوعها ،  
ولم تمض إلا سنوات معدودة بعد مولده ، وإذا عبد الحميد يصبح الخليفة  
الجديد ، فيزداد الطغيان ويزداد الاستبداد . وعيناً حاول مدحت « باشا »  
وجماعة تركيا الفتاة من بعده أن يردوه عن غيئه ، بل لقد نكل بمدحت وأخذ  
ينكل بكل من يقف في سبيل استبداده وطيشه مما اضطر كثيرين إلى الفرار  
عن البلاد إلى سويسرا وفرنسا . وهناك أخذوا يفكرون في مصير أمتهم وفيما  
انتهت إليه من انتكاس لعهد هذا السلطان الذي أخذت تنقطع تحت عينه  
أوصال إمبراطورية الترك العتيقة .

وجرى الشعر على لسان خليل مطران ، وهو يشعر في أعماقه ببؤس وطنه  
وما يرزح تحت أثقاله من استبداد عبد الحميد وبطانته ، ولم يلبث أن ثار  
في شعره على هذا الاستبداد وما يطوى من أغلال وقيود ، وعلم بذلك الحاكم  
العثماني لبلده وأعوانه ، فهاجموا داره ، ولكنهم لم يجدوا فيها وثائق تزج به  
في السجن ، فأطلقوا سراحه ، وأخذوا يرقبونه ويضايقونه . حينئذ رأى أهله  
أن يرسلوا به إلى باريس لإكمال دراسته ، وهناك التقى ببعض الفارين من جماعة

تركيا الفتاة ، وعقد أواصر الصلة بينه وبينهم . ونراه يفكر لا في العودة إلى وطنه لمقاومة الحاكم المستبد وإنما في التروح إلى المهاجر الأمريكي الجنوبي ، ومن أجل ذلك أخذ يتعلم الإسبانية . غير أنه لم يلبث أن انصرف عن هذه الهجرة البعيدة وآثر الهجرة إلى مصر ، فنزل بها في سنة ١٨٩٢ وكان قد سبقه إليها كثير من أحرار بلده ، فرأى أن ينزل معهم في هذا الوطن العربي الكريم . وليس في ديوان مطران شيء من أشعاره الثورية التي نظمها في شبابه ضد عبد الحميد وطغيانه واستبداده؛ وكأنه آثر أن لا يثبتها فيه ، لخصلة تميز بها ، هي خصلة الحذر والاحتياط الشديد وأن لا يعبر عن عواطفه السياسية تعبيراً صريحاً ، بل إن كل عواطفه سياسيةً وغير سياسيةً يعني دائماً بأن يلقى عليها الحجب والأستار ، وكأنه يأخذ بمذهب التقية ، ولعل شعرنا الحديث لا يعرف شاعراً أسرف على نفسه في اعتناق هذا المذهب كما أسرف مطران . فإذا كل أهوائه وعواطفه الذاتية الخاصة والاجتماعية العامة قد ضرب عليها حجاب صفيق ، بل حجب صفيقة وأستار كثيفة .

لقد عاهد نفسه منذ حدثته أن يحارب الاستبداد . ولكن أتى له وهو يأخذ بمذهب التقية والحيلة ؟ إذن فليفكر في حجاب أو ستار يخفي وراءهما سخطه على الاستبداد والمستبدين ، وهدهاه تفكيره منذ كان في لبنان أن يتخذ من التاريخ هذا الحجاب أو الستار الغليظ ، فهو في الظاهر ينظم في التاريخ وهو في الباطن يتحدث عن حرية الشعوب المسلوقة وما ينبغي أن تتسلح به في مقاومتها لمن سلبوها تلك الحرية من أسلحة خلقية أو مادية ، بل إنه ليدعوها إلى الثورة بهم والانتفاض عليهم ، بل أكثر من ذلك أنه يدعوها للانتقام والأخذ بالنار وأن يذيقهم نفس الكأس في حرب عنيفة لا تبقى ولا تذر . وأول موضوع تاريخي نظم فيه ، وهو لا يزال في وطنه ، هو الحروب بين فرنسا والألمان في القرن التاسع عشر ، ففي أوائل هذا القرن انتصرت فرنسا على ألمانيا بقيادة نابليون الأول انتصاراً حاسماً في موقعة يانا سنة ١٨٠٦ ، وفي سنة ١٨٧٠ تأرت ألمانيا لنفسها في عهد نابليون الثالث ودخلت جيوشها باريس . فاتخذ مطران

من هذين التاريخين عنواناً لقصيدته التاريخية الأولى . واستطاعت شاعريته الفذة أن تحوّل نسيج التاريخ إلى نسيج شعري رائع وصف فيه معركة يانا الرهيبة وصفاً دقيقاً تتلاحق فيه الحقائق وصور الخيال وتمازج تمازجها في الملاحم البديعة، حتى إذا استوفى ذلك استيفاءً قصصياً تاماً انتقل يصور أثر الهزيمة في نفوس الألمان وما ارتكسوا فيه من ذل، وكأنه يعبر عن ذل وطنه لزاء العثمانيين :

وأقام أصحابُ البلاد مآتماً      وكسوا على القنّلى ثيابَ حدادِ  
ناحتْ عرائسُهُم على أزواجها      والأمهات بكتْ على الأولادِ  
واشدَّ حزنهمُ ولم يك مجدياً      من بعدَ فنّمدَ أحبّةٍ وبلادِ

ولا يترك مطران انتصار الفرنسيين الظالم على الألمان ، فلا بد للظالم من يوم يندب فيه نفسه ويبكيها إن نفعه الندب والبكاء . ويولى وجهه نحو التاريخ يلتبس فيه عقاب هؤلاء الطاغين الباغين ، وسرعان ما تراءى له سنة ١٨٧٠ إنها السنة التي لقي فيها الباغي حتفه واستبيح حماه ، فقد ثار الألمان فيها لكرامتهم ثاراً لا ينساه العدو الظالم مهما طال به الزمان واستبد به النسيان . فقد انتفض الأحرار الألمان لعزتهم القومية انتفاضة قوية صلبة، فإذا الفرنسيون الطغاة الظالمون يترنحون تحت أقدامهم ملطخين بدمائهم ، وإذا حاضرهم باريس ترتعد فرائصها وتفتح لهم أبوابها، فيدخلونها ظافرين منتصرين . وهكذا يسقط كل هيكل للظلم والظلم أمام الأحرار الثائرين ، يقول مطران مصوراً غضبة الألمان لكرامتهم المثلومة :

يا خجلةَ الأحرار من موتاهمُ      يشؤون حيث المالكون أعادى  
فاستعصموا بالصبر ثم تكاتفوا      وتحرروا من رِقِّ الاستعبادِ  
وتأهبوا للثأر ، والأحقادُ في      أكبادهم كالبيض في الأغمدِ  
حتى إذا اشتدوا وضاق عدوهم      ذرعاً بهم أصلوهُ حرب جهادِ

وَبَنُوا رِجَاءَهُمْ عَلَى اسْتِعْدَادِهِمْ      لَا خَيْرَ فِي أَمَلٍ بِلا اسْتِعْدَادِ  
 هَدَمُوا مَعَالِمَهُ ، وَرَوَّوْا رَدْمَهَا      بَدْمَاهُ ، فَاخْتَلَطَا دَمًا بِرَمَادِ  
 وَاسْتَفْتَحُوا بَارِيسَ فَاسْتَوْفُوا بِهَا      أَوْتَارَهُمْ وَشَقَّوْا صَدَى الْأَكْبَادِ  
 كُلُّ بَمَسْعَاهُ يَفُوزُ . وَمَنْ يُنِيبُ      عَنْهُ الْحَوَادِثُ لَمْ يَفُزْ بِمِرَادِ

وواضح ما في هذا التصوير لظفر الألمان بالفرنسيين من تحريض مطران لقومه على الثورة بالعثمانيين الذين يستبدون بهم استبداداً تأباه النفوس الحرة . وهو لا يعلن ذلك في جهر وصراحة ، بل يعتمد إلى التاريخ يحجب فيه دعوته ويستترها ، حتى لا يؤخذ بقوله .

ويستقر في مصر بعيداً عن العثمانيين وحكامهم وجواسيسهم ، ولكن التقيّة لا تفارقه ، فيمضى في هذا الشعر التاريخي بنفسه به عن عواطفه السياسية المكظومة قبيل الخليفة العثماني وما ينزله بالأحرار من قتل وقتك ، وكان عبد الحميد قد قضى على وزيره مدحت ( باشا ) المصلح العظيم من زمن بعيد . وما يزال هذا الحادث الأليم وما يشبهه يقض مضجع مطران ويؤذى نفسه إيذاء شديداً ، ولكن كيف يعبر عنه ؟ إن الوسيلة التاريخية معروفة ، ولكن أى تاريخ ؟ فليكن هذه المرة قتل كسرى الباغي لوزيره بزرجمهر العادل الناصح الرشيد ، وينظم قصيدته « مقتل بزرجمهر » يصور في مطلعها هذا الملك الفارسي وكيف أنه كان مطلق اليد في حكم بلاده ، وكيف انتهى به ذلك إلى طغيان وبغى شديد . يقول :

سَجَدُوا لِكَسْرَى إِذْ بَدَأَ إِجْلَالًا      كَسَجُودِهِمْ لِلشَّمْسِ إِذْ تَسْتَلَالًا  
 يَا أُمَّةَ الفَرَسِ العَرِيقَةَ فِي العَلَا      مَاذَا أَحَالَ بِكَ الْأَسْوَدَ سِخَالًا (١)  
 كُنْتُمْ كِبَارًا فِي الحُرُوبِ أَعْزَةً      وَاليَوْمِ بِتَيْمٍ صَاغِرِينَ ضِيَالًا  
 وَأَكْبَرُ الظَّنُّ أَنَّهُ لَا يَرِيدُ بِكَسْرَى إِلَّا عَبْدَ الحَمِيدِ نَفْسَهُ ، فَإِنْ كَسْرَى لَمْ

(١) السخال : أولاد الشاة .

يعرف في تاريخ الفرس بالهزائم المتعاقبة التي أصابت جيوشه ، إنما الذي يعرف بذلك عبد الحميد الذي كانت تعاني جيوشه هزائم متوالية في البلقان وغير البلقان ، وكانت روسيا وغير روسيا يضيقون عليها الخناق . وينعى مطران على شعب كسرى - وهو يريد شعب عبد الحميد - هو ان نفسه عليه وصغاره أمام جبروته وطغيانه ، ولا يلبث أن يقول :

ما كان « كسرى » إذ ظفني في قومه      إلا لما خَلَقُوا به فعَلَا  
 هم حَكَمُوهُ فاستبدَّ تحكُّمًا      وهمُ أرادوا أن يصول ، فصَلَا  
 والجهل داءٌ قد تقادم عهده      في العالمين ولا يزال عُضَالَا  
 لولا الجهالة لم يكونوا كلهم      إلا خلائق إخوةٌ أمثالَا  
 لكن خَفَضَ الأَكْثَرِينَ جناحهم      رفع الملوك وسودَّ الأبطالَا  
 وإذا رأيت الموجَ يسفل بعضه      ألفتَ تاليه طغى وتعالى  
 نقصٌ لفطرةٍ كلٌّ حي لازمٌ      لا يرتجى معه الحكيمُ كمالَا

ومطران في هذا المقطع يقول في صراحة إن الشعب مشلول عن طغيان حاكمه فلولا إفراط الفرس في تمجيد كسرى وتعظيمه ما انتهى إلى هذا الاستبداد كله . ويرجع ذلك إلى داء قديم في الشعوب هو داء الجهل الذي يسرى بين الأفراد فإذا هم يعلون ملوكهم ويسودونهم خافضين جناحهم لهم ذلاً وصغاراً ومهانة ، وأى شيء هؤلاء الملوك الذين يرفعونهم ويعبدونهم ولكنها الجهالة تعمي أبصارهم وتحط نفوسهم وهو إنما يريد بذلك كله الشعب التركي والشعوب التابعة له التي تخنى رؤوسها لعبد الحميد وبغية وطغيانه ، فإذا هو يرتكب أشنع الجرائم والحماقات . وما يزال مطران ينحى باللوم على شعب كسرى حتى يقول :

لو كان في تلك النعاج مقاومٌ      لك لم تجبى ما جثته استفحالَا

ويبحث في الشعب عن مقاوم يصرخ ضد قتل وزيره العادل فلا يجد

بينه من يرفع رأسه ضد هذا الظلم الصارخ سوى فتاته ، فتاة الوزير نفسه ،  
ويعلق على ذلك بقوله :

ما كانت الحسناء تُرفع سِتْرَها لو أن في هذى الجموع رجالا

وهو هنا يسخر سخرية مرة من الشعوب المسترقة التي لا تناضل عن حريتها  
وحقوقها السلبية . وكانت شعوب البلقان - كما نعرف - تسجل انتصارات  
مختلفة على عبد الحميد وجيوشه ، وثار شعب الجبل الأسود فيمن ثار ، وأحرز  
في بعض ثورته نصراً مؤزرًا على العثمانيين ، أسهم فيه الرجال والنساء جميعاً ،  
فنظم مطران قصيدته « فتاة الجبل الأسود » يصور فيها مقاومة هؤلاء النساء كما  
يصور حرب العصابات التي أثارها هذا الشعب الصغير وكيف فتتك بالجيوش  
الكبيرة . وكأنه يلقي بذلك درساً على مواطنيه أن لا تفت في عضدهم قلتهم  
وأنه حرى بهم أن يحوّلوا جبلهم أو جبالهم إلى جبل أسود أو جبال سود ، يسقطون  
من شعابها على الحكام العثمانيين الغاشمين . غير أن مطران لم يجهر بذلك في  
القصيدة ، بل أخفاه بين أطوائها ، فلم يُشر ولو من طرف خفي إلى مقصده ،  
ولعله كان مضطراً إلى ذلك بسبب ما كان يظهره الشعب المصرى وقادته من  
عطف على العثمانيين في هذا التاريخ . وقد انتهز فرصة زيارته لأهرام سفارة  
فنعى على الفراعنة تسخيرهم للشعب في بناء أهراماتهم ، وكأنه يتخذهم وسيلة  
للتنديد بالعثمانيين وعدوانهم وبغيهم على الشعوب الموالية لهم .

ونمضى إلى سنة ١٩٠٨ فيكتب النصر لجماعة تركيا الفتاة ، ويرغمون  
عبد الحميد على الأخذ بسنة الدستور والشورى في الحكم ، فيقيم النظام النيابي ويعلم  
أن جميع أفراد رعيته سواء في الحقوق وأمام القانون . وبذلك تقوض نظام  
عبد الحميد الاستبدادى وانقض من قواعده ، وهللت الرعية في الولايات العثمانية  
للدستور الجديد ، وشفقت طرباً واستبشاراً ، وتغنى به شعراؤها طويلاً مؤملين في  
غد باسم سعيد . حينئذ يفك مطران عقدة نفسه ويحل حبسة لسانه ، فلا يستعين  
بالتاريخ ولا يخفى من ورائه ولا يخترن أفكاره في مكنون أحداثه ، بل يهتف

من أعماقه بقصيدته « تحية الحرية » التي يسهلها بقوله :

حَيِّتْ خَيْرَ تَحِيَّةٍ يَا أُخْتَ شَمْسِ الْبَرِيَّةِ  
حَيِّتْ يَا حَرِيَّةَ

الشمس للأشباحِ وَأَنْتِ لِلأرواحِ  
كالشمس يا حريه

أنتِ النعيمُ وأحلى أنتِ الحياةُ وأعلى  
للخلقِ يا حريه

شارقتِنَا فانتعشنا وفي ظلالك عشنا  
بالعدل يا حريه

كوني لنا عهدَ سعدٍ وعصرَ فخرٍ ومجدٍ  
بدوم يا حريه

ويسترسل فيصور حركة الانقلاب ودعائها من جماعة تركيا الفتاة وما بدلوا من تضحيات وتجشموا من مشقات ، حتى أذكوا روح الثورة في الجيش وصفوفه ، فكتب لهم النصر والفوز المبين غير أن الرجعيين كانوا لا يزالون يمنون أنفسهم الأمانى فسولوا لعبد الحميد أن يمكر بالدستور الجديد وما هي إلا عشية أوضحاها ، حتى عُرِّل عن سلطانه وعصفوا به وبأعوانه . ويستقر الدستور ويتوطد بنيانه وأركانه . ويدور العام الأول ، فيحتفلون بعيد احتفالات شعبية واسعة في تركيا والولايات العثمانية . ويحيي مطران هذا العيد بقصيدة طويلة يقول في تضاعيفها :

يا عيد ذكَّرْهُ من تناسى أننا لم نك من آبهة العبدى (١)

(١) آبهة : هاربة ، العبدى : جمع عبد .

كنا على الأصفاد أحراراً سوى أن الرزايا ألزمتنا حدًّا  
وكلُّ شعبٍ كاسرٍ قيودَه بالحق ما اعتدى ولا تعدَّى

ويُشيد بنظام الشورى إشادة بالغة ، ويدعو إلى التعاون والتناصر في ظل  
الدستور وأن يتولى مصالح الأمة العثمانية الحاكم البصير والخير العادل الذى  
يجمعها على الهدى والرشاد

## ٣

وعلى نحو ما وعى مطران ظلم العثمانيين لرعاياهم لبنانيين وغير لبنانيين  
وعى ظلم المستعمرين الإنجليز لمصر والمصريين ، وكان لهذا الوعي دويته  
الصارخ في أعماق نفسه . فقد حنّت عليه مصر والمصريون ، وأصبح يشعر  
بنفس مشاعرهم وعواطفهم السياسية ، ولكن كيف يعبر عنها في حرية ، وسيف  
المستعمر وصلت على الرقاب وسجونه مفتوحة للأحرار ، وهو من نعرفه حذراً  
وحيطه ؟ لا بد إذن من محاورة المستعمر المحتل ومدارته حتى لا يأخذ بالنواصي  
والأقدام ، وحتى لا يذيقه أغلال السجون . وكان أول ما فكر فيه الحرب  
الناشبة بينه وبين شعب البوير في جنوبي إفريقيا ، فرأى أن يتخذها باباً  
ينفذ منه إلى ما يريد من تصوير النقمة على عدو المصريين الغاصب وصَبَّ  
سخطه عليه ، فنظم ثلاث قصائد ، أولها في « الطفلة البويرية » وبيان  
مقاومة النساء للمستعمر وحرابه وسلاحه ، وثانيها في وصف الحرب الدائرة هناك ،  
جعل عنوانها « حرب غير عادلة ولا متعادلة » وفيها يصرح بالعاطفة المشتركة  
بين المصريين وبين هذا الشعب الذى يكافح عن حريته ووطنه كفاحاً مريراً ،  
يقول :

بين الذين يقاتلو ن وبيننا قُرْبَى النِّقَمِ  
مَنْ يَسْتَبِحُّه عدونا فله بنا صلةُ الرَّحِمِ

ويصور تصويراً باهراً المعارك الناشبة هناك بين الوطنيين والإنجليز ، وهم يستميتون في ذودهم عن حماهم غير مبالين بحافل العدو الزاحفة ومدافعه وقنابله المصمية ، حتى ردوه في بعض هجماته على أعقابه ، ويهتف الخليل :

غلبَ القليلُ على الكثرة ير وعفَّ عنه فما انتقم  
لكنه مهما يفزُّ بدأ يسُوهُ المختتم

إن الخاتمة للوطنيين المستضعفين ، والنصر أخيراً سيكون على المستعمرين الظالمين ، ولن تمنعهم جيوشهم ولا عددهم وأسلحتهم ، بل سترد القذائف إلى صدورهم ، فلا بد لكل شعب مظلوم من يوم يلح فيه ظالمه دحراً ، ويقضى عليه قضاء مبرماً . ومطران في كل ذلك إنما يتخيل معركتنا المستقبلية مع الإنجليز الذين كانوا يجثمون على ديارنا ويعتصرون طبيات أرضنا ، فلا بد لهم من يوم ترجف بهم فيه الراجفة ، فيولون على وجوههم من ديارنا صاغرين . وقد تحقق رجاؤه مع ثورتنا المباركة وتحقق يوم الجلاء الذي كان ينتظره هو وإخوانه من مثل حافظ وشوقي بقلوب مؤمنة . ونجد نفس العواطف والأفكار في قصيدته الثالثة وعنوانها «استئناف حرب جائرة» وفيها يصور الفصل الأخير من مهزلة المستعمر في هذه الديار الآمنة وما ينزله به البوير رغم انتصاره من خسائر في المهج والأرواح ، ولا يلبث أن يستثير المصريين كي يهبوا في وجه المحتل الأثيم ويتقدوا ديارهم من برائته ، يقول :

ولقد أرتو إلى مصر التي خلَّدتها الباقيات الصالحات  
فأرى روحاً قديماً طائفاً باكياً مما جنت «مصر» الفتاة

ولم ترضخ مصر ولا ذلت للمستعمر كما توهم مطران ، إنما كانت تستعد لجلاده وكفاحه ، وقد ظلت تكافحه كفاحاً قاسياً في هذا القرن ، حتى أسلم واستسلم صاغراً . ومطران إنما يقول ذلك بعاطفة الأخ الشفيق والابن البار يريد أن تثار مصر لكرامتها وترد العدو الغاصب عن ديارها . وقد عاد إلى

استخدام التاريخ ينفس به عن عواطفه السياسية المكظومة قبيل الإنجليز المعتدين وما يتزولونه على المصريين من ظلم وعذاب أليم ، ولكن أى تاريخ ؟ لقد عاد بداكرته إلى تاريخ أئينا حين ضعفها وما أنزله بها الرومان المستعمرون حين استولوا عليها من بطش وعدوان شديد ، فصور فى قصيدته « شيخ أئينا » صورة هذا العدوان ، وحكى على لسان هذا الشيخ ما صارت إليه بلدته من انحلال وتواكل أعدا للهزيمة ، وأخذ الشيخ يندب الشباب ويبكيهم فقد أذلم الطرف والخوف من الحرب والمجازفة :

يا دهرُ إن كنت لم تمهل شبيبتنا	حتى أدلّت انحطاطاً من معالينا
فأنت خيرُ مرَبٍّ للأولى جهلوا	كجهلنا أن ترك الحزم يُشقيننا
فردُّ مصائبنا حتى تنبّهنا	تكن حياةً لنا من حيث تُردِّدنا
همُّ سقوا بدم الأكباد عزمهم	وبات فى صدل الأعماد ما ضينا
تالله ما غلبونا حيث باسلنا	قضى قتيلنا ونالوا من نواصينا
لكنهم غلبونا حين ملكهم	أزّمة الأمر شاديننا وراضينا
فأهمُّ بأعادينا ، خلّاتقنا	هى التى أصبحت أعدى أعادينا

ومطران فى ظاهر القصيدة يتحدث عن غزو الرومان لأئينا واليونان واحتلالهم لديارهم ، وهو يضمّر فى ذلك احتلال الإنجليز لمصر ، وما ينبغى أن يتسلح به المصريون من حزم وعزم حتى يخرجوا العدو من أرضهم ويطمسوا آثار أقدامه . ويذهب نفس المذهب فى قصيدته « السور الكبير فى الصين » إذ يرمز بها لما أصاب مصر فى عصره من ظلم المستعمر وما كانت تعانیه من ضيم ، ويقول إن السور الكبير فى الصين لم ينفع أهلها ، فلا بد من سور أكبر منه وأضحّم وهو سور القلوب القوية والعزائم الصلبة :

ماذا يفيد السورُ حول ديارهم	وقلوبهم فيها ضعافٌ هُرَبٌ
لا يعصم الأمم الضعيفةَ فطرةً	إلا فضائلُ بالتجارب تُكسبُ

فتكون حائطها المنيع على العدى وتكون قوتها التى لا تغلب

ولا نجد لمطران قصيدة يشور فيها ثورة صريحة على المحتل ، فهو لا يجب الصراحة الصريحة ، إنما يجب المواراة والمداورة . ومع ذلك فله مقطوعة نظمها فى سنة ١٩٠٩ حين صدر قانون المطبوعات ، فكمم الأفواه وقيد الحريات ، وفيها يقول :

شردوا أختيارها بجرأ وبرأ	واقتلوا أحرارها حُسرأ فحرأ
إنما الصالحُ يبقى صالحاً	آخرَ الدهرِ ويبقى الشرُّ شرأ
كسروا الأفلامَ هل تكسيرها	يمنع الأيدى أن تنقش صخرأ
قطّعوا الأيدى هل تقطيعها	يمنع الأعين أن تنظر شرأ
أطفئوا الأعين هل إطفائها	يمنع الأنفاس أن تصعد زفرأ
أخذوا الأنفاس ، هذا جهدكم	وبه منجأتنا منكم .. فشكرا

وهى على كل حال لا ترتفع إلى قصيدة حافظ القافية التى نظمها هذه المناسبة والتى سبق أن أشرنا إليها فى فصله الخاص ، فقد ثار حافظ ثورة صريحة على الإنجليز ، وطالب المصريين أن يبدلوا دون حريتهم المسلوبة دماءهم الزكية . والحق أن الشعارين لم يكونا من طبيعة واحدة ، فحافظ صريح لا يضممر ولا يستر شيئاً من عواطفه ، أما مطران فكان يؤثر كبت عواطفه وأن يلمح إليها من بعيد فإذا خالف طبيعته وأعلن ما أضمره لم يبلغ نهاية الشوط . وحقاً صرخ مطران فى بعض شعره ولكن لا فى وجه الإنجليز وإنما فى وجه الطليان حين غزوا طرابلس واستباحوا حماها ، فقد نظم ثلاث قصائد فى الدعوة لإعانتها فى محنتها ، وأروع تلك القصائد قصيدته « عتاب واستصراخ » وفيها يستشيط غضباً لا للطرابلسيين وحدهم وإنما للعرب جميعاً ، ويصرخ : لا بد أن نتصر على الباغين وننكل بهم تنكيلاً فظيماً :

إنى لأسمع من حزب الحياة بكم : نصرأ لأمتنا ، سُحِقاً لمن ظلموا

نعم لتُنصَرَ على الباغين أمتنا  
 لتَحْيَ ولِمْت الموتُ المحيطُ بها  
 إن نَبَغَ إعلاءُها، لاشيءَ يُخَفِّضُها  
 الشعبُ يجيأُ بأن يُفدَى، ومطعمه  
 عودوا إلى سير التاريخ لا تجدوا  
 لا شعب يقوى على شعب فيهلكه  
 يا أمتي هبةً للمجد صادقةً  
 لا بالدعاء ولكن نصرها بكم  
 من حيث يدفعه أعداؤنا الغُشمُ  
 فهل تموت وفيها هذه النسمُ  
 مالُ البنين مزكَّى والشراب دمُ  
 شعباً قضى، غير من ضلّوا الهدى وعمّوا  
 فإن تر القوم صرعى فالجناة همُ  
 فالنصر منكم قريبٌ والمنى أممٌ (١)

والقصيدة كلها بهذا الصوت القوي الصريح الذي يشد العزائم ويدفعها دفعاً إلى كفاح المستعمر كفاحاً عنيفاً ، وهو فيها يشيد بالعرب وأمجادهم وبطولاتهم الخارقة .

وتضع الحرب الكبرى الأولى في هذا القرن أوزارها ، ويقسم المستعمرون الولايات العثمانية فيما بينهم ، فتأخذ فرنسا لبنان وسوريا ، ويأخذ الإنجليز فلسطين والعراق ، ويصبح العالم العربي جميعه محتلا ويتجمع سخط الشاعر على هذا المصير في قصيدته « نieron » وهو فيها لا يثور ثورة صريحة على المستعمرين المعتدين ، بل يعود إلى التاريخ ، ويسعفه بسيرة نieron الطاغية الذي سَوَّكَتْ له نفسه أن يحرق روما ويلهو بالفرجة على النيران وهي تلتهمها التهاماً وقد ارتكب « نieron » كثيراً من الفظائع والمخازي ، ولا حسيب له من الشعب ولا رقيب ، فنظم فيه مطران هذه القصيدة يصور فيها سيرته الباغية ملقياً مسئولية بغيه وطمغيانه على شعب «روما» الذي أفرط في تمجيده ولم يحاسبه على منكراته ، وهي تقع في أكثر من ثلاثمائة بيت وقد وزعت على نحو عشرين مقطوعاً ، فهي ملحمة كاملة ، وهي تسهل مقاطعها بمقطع يجعل فيه مطران الفكرة السياسية التي يريد بها من نظمها ، وهي أن الشعب مسئول عن طغيان

حاكمه وفساده ، وهو ينحى فى المقاطع جميعها باللائمة على هذا الشعب :

ذلك الشعبُ الذى آتاه نصرًا	هو بالسبِّ من «نيرون» أحرى
أى شىءٍ كان «نيرون» الذى	عبدوه ؟ كان فظًّا الطبع غيرًا
قرمزةً هم تصبوه عاليًا	وجثوا بين يديه فاشمخراً <sup>(١)</sup>
ضحّموه وأطالوا فيّته	فترى يملأ الآفاق فجراً <sup>(٢)</sup>
منحوه من قواهم ما به	صار طاغوتاً عليهم أو أضراً <sup>(٣)</sup>
مدّ فى الآفاق ظلاً جائلاً	هو ظل الموت أو أعدى وأضرى
إنما يبطش ذو الأمر إذا	لم يخف ببطش الأولى ولّوه أمراً

ويأخذ مطران فى بيان مآسى حكمه وفضاظة طبعه وقسوة قلبه ، وقد أنهال على الرومان يفتك بهم ، حتى أمه التى حملته فى بطنها وهناً على وهن قتلها ومثّل بها ، وشعب روما من حوله يبالغ فى تعظيمه راکعاً عند قدميه . ويذم مطران هذا الشعب الجاهل الذى «أغرى» نيرون وأضرابه من الباطشين بالظلم ، وإنه لمد له فى ظلمه بما يكيل له من المدح والثناء ، حتى ليظن نفسه قادراً على كل شىء مبدعاً لكل فن حتى التصوير والتمثيل ، والشعب يشايه ويرضى له فى عنان أوهامه حتى نصيبه لوثة ، فيحرق روما ويرقص على نغم اللهب المتصاعد فى السماء . وفى أثناء وصف مطران لهذه السيرة السيئة ينحى على الرومانيين دائماً ذلهم وخنوعهم لهذا الطاغية المجنون الذى مدّوا له فى أسباب طغيانه :

ليس بالكفء لعيشٍ طيب كل من شقّ عليه العيش حرّاً

(١) اشمخ : تعالى ، القرمة : القصير القمى .

(٢) القمى : الظل ، الفجر : الفجور .

(٣) الطاغوت : الشيطان .

من يَلُمُّ نِرونَ إني لائِمٌ      أمةٌ لو كَهَرْتَهُ ارتدَّ كَهْرًا<sup>(١)</sup>  
 أمةٌ لو ناهضته ساعةٌ      لانتهى عنها وشيكاً واثبجراً<sup>(٢)</sup>  
 كلُّ قومٍ خالقو «نِرونهم»      «قيصر» قيل له أم قيل «كسرى»

ومطران في كل ذلك إنما يصور طغيان المستعمرين وبغيهم على العرب وعدوانهم ، ولكنه على عادته لا يصرِّح ، وإنما يرمز ويلوِّح .

على أنه ينبغي أن نشير إلى أن هذه الطريقة عنده قد أتاحت لشعرنا العربي الحديث أن يثبت قدرته على التعبير القصصي . ومن غير شك استوحى مطران في هذا الصنيع ما قرأه في الشعر الغربي من قصائد قصصية ، ولكنه لم يخرج إلى صنع ملاحم كبيرة ، فلم يكن هذا همه وإنما كان همه أن يفصح عن طغيان العثمانيين والمستعمرين بالشعوب العربية وإهدارهم لحرياتهم . ومن هنا نلمح في تاريخياته وقصصياته آراءه وأفكاره وموضع شكواه

(١) كهرة : انتهرته .

(٢) اثبجر : ارتدع .